الشعر بين الرويّـَة والبديهة و الروح والجسد. قراءة في ديوان (قبل التيه برقصة) للشاعر والناقد هاني الحسن

الرويّة والبديهة مصطلحان نقديان من مصطلحات النقد العربي القديم،ورد ذكرهما على لسان ابن الرومي في قوله:

نـــار الـرويّـَـة نـــارٌ جـدّ ُ مـنضجةٌ

وفـي الـبديهة نـارٌ ذات تـلويحِ

وقـــد يـقـدّمها قـــوم لـسرعتِها

لكنها سرعةٌ تمضي مع الريحِ

الرويّة تستدعي مفاهيم تحفّ بها؛ كالتشذيب والتحكيك، والعرض والمراجعة، ونقد الذات.
والبديهة تستدعي الموهبة والطبع والارتجال و جريان اللغة وانسيابها.
وهاتان السمتان لا يجتمعان في شاعر إلا كان شعره ناهضا بشرط ألا يطغى أحدهما على الآخر.
هاني الحَسن جمع بين الحُسنيين في هذا الديوان،
فجاء شعره متوازنا ومتدفقا ومنسابا.

إنّ معادلة الرويّـَة والبديهة معادلة صعبة تتلبّس الشاعر عندما يكون ناقدا فتعيق انطلاقه وتحدّ ُ من جريانه أثناء الكتابة، فإذا كان في داخل كل شاعر ناقد حصيف يضبط إيقاعه أثناء الكتابة وماذاك الناقد إلا روحه الناقدة، فإنّ الشاعر الناقد سيكون محاطا بناقدين ضابطين؛ الروح الناقدة التي يمتلكها كل شاعر، والناقد التقليدي المتمرس، هذان الناقدان الرقيبان ربما تسبّبا في إعاقة انطلاق الشاعر والحدّ من تدفقه وجريانه في مضمار الكتابة، فتجده في تردّد دائم أمام مواجهة الإبداع ومحاسبة الذات الشاعرة بشكل حاسم؛ ممّا يضعف المـَلـَكة ويعيق الشعور أحيانا، تأخذه هذه الحالة ناحية المعقول وجهة المعايير الدقيقة للغة، فيكون أقرب إلى الحقيقة وأبعد عن التخييل والإشارة

وبين البين... وهذه الأمور من مرشّحات الشعر الجميل.

الشاعر الناقد أشبه مايكون بالطبيب حين يجري عملية جراحية لنفسه، وفي ذلك من العسر مالا يخفى، ومما يزيد الشاعر الناقد قلقا أنه ربما خشي أن يؤخذ عليه ما أخذه هو على غيره، فيكون محاطا أثناء الكتابة بمحاسبة عسيرة للنفس مخافة أن يعتري قصيدته النقص، فيكون محاجّـَا بالمساواة على مبدأ (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)

لقد تمكّن هاني من الجمع بين ثنائية النقد والشعر فجاء شعره منسابا ومكثّفا ومتوازيا مع تعريف للبلاغة العربية في أنها: كرم المعاني في شحّ اللفظ، وحسبك أن تقرأ هذه الأبيات لتتلمس بنفسك هذا الاختزال:

أنـــا حـشدٌ مـن الـنزعاتِ

كـلّـي رغـبةٌ فـي الـحبّْ

ولـــم يـسبق لـثغري أن

تـــذوّقَ ريـــقَ ريـمٍ عـذبْ

فما زال العفافُ يصدّ ُني

عـــن فـعـلِ ذاك الـذنـبْ

ورغم الدهشة المتحصّـِلة من التكثيف والضغط الكمي للألفاظ فإنّ الوضع الدّـَلالي لم يفارق الغرض المدني كما يسميه ابن سينا، وهو غرض روحي أخلاقي ينتصر للروح والأخلاق ولمعاني القيمة التي تحث على فعلٍ وتردع عن فعلٍ آخر، فالعفاف والحياء يصدّان الشاعر عن ممارسة الحب الجسدي، ويسموان به إلى عالم الروح والتصوّف، نعم يريد الشاعر أن يكون صادقا مع القيم، ويريد الشعر أن يكون كاذبا مع الواقع الذي يعيشه الشاعر في عالم الخيال، يريد الشاعر أن يكون متوائما مع الأخلاق والتقاليد ويريد الشعر أن يكون مختلفا عن السائد ومنفلتا عن قيود اللغة ورتابة الوضع اللغوي.

هذه الأبيات الجميلة تذكرنا بتصوّف أبي العلاء المعريّ الذي حرم جسده من اللذات وعاش الروح مجردة عن الجسد، فعاتبه بدويّ الجبل بقوله:

إيهٍ رهينَ المحبسين ألم يئن

إطلاقُ مأسورٍ وفكّ سراحِ

أتضيقُ بالأنثى وحبّكُ لم يضق

بالوحشِ بين سباسبٍ وبطاحِ

يا شاتمَ التفاحِ في وجناتها

لو ذقتَ بعض شمائلِ التفاحِ

إن ظاهرة الصدق الأخلاقي تتوازى مع الصدق الفني لدى هاني، وهي من أهم سمات تجلّي هذا الديوان (قبل التيه برقصة) الذي غامر في تجربته مع اللغة مغامرة دافئة وحالمة؛ لأنها
تقترن اقترانًا وثيقًا بالرومانسية، والرومانسية التي تكتفي بالحلم تبقى حروفها مسيّجةً بأسوار الأنا والذات التائهة، أمّا الرومانسية التي تفتح أذرعتها للغة وتفرّغ صدرها من الأحلام الكسولة، وتقلّم من أجنحتها الهائمة بالقرب من الأرض، والنهر، والزهر، والثمر، والطير... فهي تقدّم نموذجًا يفي بمتطلبات الشعر الجميل في ابتكار علاقات الأشياء وتدشينها في لحظات وجدانية راقصة تنتظم في موسيقى عالية، وهو ماتكشف عنه هذه الأبيات:

هل لعيد النشوة الأولى مذاق

ولنا في رغبة الوصل عناق

عتّقَ الثغر الذي تغفو لماه

في جوى الروح السقيمة

أورقى زهرًا على جدب فلاتي

ربما يرقص عشبٌ

وسط صحرائي

وتخضرّ ُ على كتفي العزيمة

ورغم التشتت الرومانسي والتيه الخيالي الذي يشعّ ُ من هذه النصوص الأَنَوِيّةَ إلّا أنّ العتبة الأولى (قبل التيه برقصة) تبدو متصلةً اتصالاً وثيقًا بالقصائد التي انضوت تحتها، فقد كوّنت بِنيةً مفتقرة إلى عنوانها من الناحية الدلاليّة ومن ناحية التآزر الكبير بين بوابة العبور ولغة الديوان، وهذا يعني أنّ إحالة العنوان إلى عمله إحالة منطقية تدعو إلى إشراكه في قراءة النصوص، فهو بمثابة شاغر قرائي بين النصوص والعنوان رغم افتقار العناوين في المجمل إلى الصياغة النحوية أو البلاغية الصادمة التي تُبنى على الغريب وإثارة الدهشة؛ ممّا يجعلها رهينة الصياغة الإجرائية.

الحب والشعر صنوان في هذا الديوان؛ كلاهما مفتاح بوابة الأحلام وسادن المشاعر الإنسانية حتى غدا هذا المعنى حدًّا شاعريًّا يُغنّيه المبدع من أجل البؤساء؛ ليمارسَ به حبًّا معنويًّا مقدّسًا:

انّ القصيدةَ لبسُ الروح من وجعٍ

فهل يعيش الذي بالحبْ ما التبسا؟

الشعر مدٌّ من الإلهام نكتبه

تحدّ ِيا للأسى يحنو على البؤسا

لو استقوا لسقاهم منهلا عذِبًا

وإن سعى في عراةٍ ضمّ َهم وكسا

ومن أجل الرغبات أحيانا؛ ليمارس به حبّاً مؤنّساً:

أنـــا حـشدٌ مـن الـــنزعاتِ

كـلّـي رغـبـةٌ فـي الـحبّْ

ولـــم يـسبق لـــثغري أن

تـــذوّقَ ريـــقَ ريـمٍ عـذبْ

فما زال العفافُ يصدّ ُني

عـــن فـعـلِ ذاك الـذنـبْ

هذا الشحن العاطفي المتصارع بين الروح والجسد سبب أصيل في تجاذب وتدافع وتنافر قواميس اللغة ودلالاتها وتشعّبها في هذا الديوان، حيث تشكل القصيدة مرآة شاعرها:

أنـــا وحـيدٌ وثـقل الـجرح فـي رئـتي

بـمـلـئه صـــارت الأنـفـاس تـخـنقني

تـجـمّعت كـلـماتي فـي وعـاء يـدي

وعـنـدمـا أكـــتـب الأشـعـار أكـتـبني

وقـــد تـخـبّـَأت فـي أدغـال أسـئلتي

وجدتُ لا شيءَ في الأشياء مثّلني

ورغم هذا الصراع الذي يعدّ انعكاسا لصراع ثنائية (الجسد والروح) في النفس الشاعرة والنفس البشرية بشكل عام، فالقصيدة تنتصر جماليّاً للروح:

مشرّداً عن حياتي ضعت في جسدي

ما أصعبَ التيهَ بين الروح والبدنِ!

كم أبعدتني شؤون عن شؤون رؤًى

وخان بي العمرُ لكن قطّ لم أخُنِ

لقد كانت هذه النصوص أمينة مع لغتها ومتصالحة مع المتلقين بجميع أطيافهم ما يجعلها جديرة بالقراءة والتأمل.